الوجودية .. لماذا ؟

بقلم : محيي الدين محمد

ـ تتمة المنشور في العدد الماضي ـ

مدخل الى الاخلاق :

ما هي الاخلاق ؟! انها القيم التي يفرضها مجتمع ما ، كنظام على افراده وهي تتفاوت دائما في درجتها ، فهي احيانا قيم اسرية ، وأحيانا دينية ، وأحيانا عصبية ، وهي بسبب ذلك تحشر جميعا في بند الاخلاق ..

غير اننا ـ بسبب من ذلك الاختلاط ـ مضطرون الى تنحية كل تلك القيم التي تفرضها نظريات ضيقة، تخص الاسرة والدين والوطن ، وسنمسك بالقيم الفاضلة العريضة الواسعة التي سعى بها اليونان بخاصة والبشر كلهم على العموم ... الحكمة .. العدل . الشجاعة .. الفضيلة ..

ان الانسان هو نسخة من مجتمعه وطبقته ، ولذلك يولد الذي يسميه ابواه (محمدا) من طائفة المسلمين ، فهو يصوم رمضان ، ويركع صلواته الخمس ، ويتزوج بثلاث نساء مثلا ، ويمتنع ميكانيكيا عن الخمر والخنزير ... هكذا خلف اوامر اجداد جد اجداده.. فأخلاقه(نعني سلوكه بين الناس) هي باشارات مكتوبة له في الكتاب المقدس ، وهو لا يستطيع ان يناقشها او يعترض على نصوصها فقد قبلت منذ البدء كجواب على كافة الاسئلة والاستفسارات .. فهو ينضوي طائعا بدون كلمة اسفل اوامرها ، وهنا ـ في لحظة الانضواء هذه ـ يتم الفصل النهائي بين قمتين من القمم الانسانية : الطبيعة البشرية ، التصور الانساني ..

ويصبح هذا (المحمد) معدوم الارادة تنبع كافة تصرفاته عن ذلك الكتاب الذي يحمله في قلبه بدل القلب ، وفي راسه بدل الدماغ .! فاذا خير في حديث او نقاش بين ان تكون زوجه عاقرا او غير عاقر ، لم يستطع ان يحظى بجواب من أفقه الشخصي ، فهو يتراجع نحو كهفه المضاء بأسطر الكتاب المعين باحثا عن النص اللازم .! وبذلك يصبح هذا (المحمد) نسخة مشابهة لمئة مليون (محمد) يفكرون نفس تفكيره ، ويردون نفس ردوده ، ويعالجون (بنفس الحكمة) ما يطرأ لهم .!

وقد فطنت الرواقية (القرن الثالث ق.م) الى هذا التعارض بين القيم الاخلاقية والطبيعة البشرية ، فأسندت الى السعادة الداخلية والسيطرة على النفس كل معنى الحياة الاخلاقية « فليست الاشياء هي التي تفعل في كياننا الذاتي فتجعلنا نشعر بالسعادة او بالشقاء ، بل الاحكام التي نصدرها على تلك الاشياء .. » (1)

ولما تعارض الى هذا الحد معنى الاخلاق ، بين الارادة البشرية ، والنظريات المكتوبة ، حاول الفلاسفة الاغريق ان يضعوا الجواب في ان الفضيلة ليست الا ان يؤدي الانسان وظيفته (كالقلم مثلا ، لا يأتي بشيء خارج حدود وظيفته ، فهو يكتب فحسب) وظنوا ان الانسان الفاضل هو الذي تحدد وظيفته كما تحدد وظائف الاشياء ..

وبذلك خططوا منذ البداية لإخلافية الانسان المعاصر ، والذي تسدد خطاه فلسفات تصدر مباشرة عن مثل هذه الاراء العازلة للطبيعة البشرية والحرية والقدرات والتي تنتهي الى ان تعرف بأن فضيلتنا (ليست ثمرة لطبيعتنا تصدر عنها من تلقاء نفسها ، بل نتيجة لمعركة ضد انفسنا ونصر عليها ..) ووصل الحد الثالث لمثلث المناقب ، عندما انتهى (غورغياس) المفكر الاغريقي الى ان عدم الخضوع لقاعدة ، والحياة في حرية هي الفضيلة والسعادة ..

رافضا فكرة خضوع الفرد للاحكام القبلية والمدونة احيانا في الرؤوس واحيانا في الكتب ..

ثمة اخلاقيتان : احداهما ميتافيزيقية ، خاضعة للتفاسير الغيبية ولذلك فهي صامدة . متوقفة. واحدة.غير متطورة. قديمة . مهترئة . تشير الى انسان غريب(معدوم الارادة). شريف . طاهر .!!

والاخرى فيزيقية . متحولة .. ولذلك فهي جديدة ، تشير الى انساننا هذا الخاطىء . المسكين . الشهوي ....

ان الانسان هو طائفة شديدة التعقيد من ميول مختلفة وتركيبات متعددة الجوانب وغرائز ورغبات لا تعد ، يحصرها كلها هذا العنوان الصغير : الفرد ...

وان اخلاقا تقوم ، لا بد ان تعود ـ في النهاية ـ الى ذات هذا الفرد .. الى هذا الكائن بالذات .. فلن تجدي اخلاق مكتوبة تفترض ان نفس الميول والرغبات التي تسير (الاسكندنيافي) هي هي التي تدفع بالافريقي ..

ولن تجدي أخلاق أخرى تزعم بأن فكرة (الطاعة للدولة) هي منتهى اشراق الافكار التي عبرت في التاريخ برغم ان (الطاعة) تصبح في النهاية ذلك النير الذي جاهد الوعي الانساني في الخلاص منه ..

(1) ص ٢٣ من الحكيم القديم الى المواطن الحديث (اميل بريه ترجمة الدكتور محمد مندور)

ان الاخلاق الجديدة هي أخلاق هذا الفرد ، ولذلك فهي اخلاق نسبية ، ولذلك ايضا تفضي فكرة الاخلاق الراهنة الى الحرية ...!

الاخلاق المسيحية :

ان الحياة ليست بذات قيمة في النظر المسيحي ، فهو يسوي امورها على اساس من مفارقته الحتمية لا في موعد قريب ، وهو يتخذ وجوده الارضي ذريعة او اختبارا يؤدي به الى الفردوس الالهي ..

الحياة الارضية تفترض نوعا من السلوك وثيق الصلة بالارض وبالطبيعة الارضية ، والحياة الالهية تفترض نوعا مخالفا من السلوك ، ولذلك وجد المسيحي نفسه في موقف متناقض غاية التناقض : وبذلك استطاع ان يخترع خلاصه العجيب ، كيما يبتر احدوجهي التناقض ،بأن يرفض طبيعته نفسها . ان يرفض غرائزه ومشاعره وقدراته .. وان يهيىء مكانها حبه ليسوع .!

فعلى حساب الطبيعة البشرية ضحى المسيحي بحياته الارضية ليكسب الخلود الالهي ، واعتبر كل ما هو مادي خطيئة يجب بترها ، واول هذه الخطايا هو الجسد الانساني . هذا الجسم : جسمنا المجنون الشيطاني ذو الالف شهوة « ان مملكة المسيحي » ليست في هذا العالم ، والحياة الحقيقية هي الحياة الخالدة ، وهي تبدأ بعيدا عن الارض — في السماء ، وسط السعداء ، في مشاهدة الله .. » !!(١)

وبذلك استطاع المسيحي ان يجد عذرا هروبيا يجرفه بعيدا عن التفكير في شرور المجتمعات ، وان يحل مشاكله بطريقة الثورة او النقد .. قد انزوى هذا الانسان وأصبح مثاله الاعلى هو (المتصوف) : ذلك الرجل الذي نفى غرائزه في سقف ديره المنعزل ، وأقام من نفسه — في قلب الصحراء — شاهدا على سخف فكرة الانسان النصف ، المبتور حتى الوسط !.

ان المتصوف هو امل المسيحية الاكبر .. وهو عزاؤها الفكري الذي أغمد في جسد العالم ، وهو يحسب — بسبب من طبيعته نفسها — ان تغيير هذا العالم ممكن بواسطة حب .! بواسطة مشاركة في عاطفة .. ولكن هذا الافتراض المقتول تبخر منذ اللحظة التي فهم فيها الناس حقيقة الصلة بالاخر .!

فبينما كانت المسيحية في عصرها الاول قدسية تسير بين الناس ملقية نصائحها اليهم ، وبعقليتهم ، اصبحت لفرط صحة استنتاج متصوفيها — ان الحب لا يستطيع تغيير العالم — عزلة عن العالم وابتعادا عن البشر ..

ورغبة في الاتحاد المسكين بالرب، في ألم محرق ، وولع مجنون ... بين الصبار والرمال ووسط النجوم .. وفي ذلك الصمت المؤلم بين المسافات القاحلة !.

الاخلاق المسيحية هي حياة الفضائل التي انتهت بتقسيمها الى نوعين فضائل الهية ، وفضائل غير الهية ... ... اما الفضائل الالهية فهي الايمان بالرب والامل ومحبة الغير ، اي هي التعاليم التي ذكرها الكتاب المقدس ملحا عليها ومؤكدا ضرورتها .. اما الفضائل الغير الهية فهي فضائل الخير التلقائية المزروعة في البشر ، والتي هي نتيجة منطقية لاحكام البيئة والتربية والفهم الصحيح.. اي هي الفضائل التي لم يذكرها الكتاب المقدس الا مقرونة بالديانة المسيحية .. لان الحب البشري ان لم يكن مسيحيا، يصبح خطيئة .! (٣)

اما هذه الفضائل الارضية والتي تنشأ اثر معاملاتنا الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، فهي خطايا واجبة التنحية والازالة .. لانها ناشئة بطريق هذا الجسم النجس الذي لا يخرج عنه الا كل ما هو سيء وشرير ولعين !!

ان الفضائل الحقيقة ليست الا الموجهة نحو الله ... فبدون العون الالهي تصبح الاخلاق الارضية شرورا ومساوىء ! (٤) .. وبذلك استطاعت المسيحية ان تقضي

(٢) ص ٣٨ المصدر السابق ..

(٣) ان فضيلة الوثني ليست الا رذيلة (مارتن لوثر)

(٤) ان الطبيعة البشرية عاجزة عن ان ترتفع بذاتها الى الواجب الاخلاقي واذن فبدون تدخل الله تدخلا دائما ، بدون ذلك الاثر الفعال الذي تحدثه القدرة الالهية في الطبيعية ، الاثر الذي نسميه عون الله (Grâce) سيظل الانسان ضالا في حياتنا الارضية وعاجزا عجزا تاما .. » ص ٥٠ من الحكيم القديم الى المواطن الحديث .

على كل الفضائل التي تدعو لها أحيانا المجتمعات الوثنية (ولنلاحظ ان الوثني هو كل ما يخالف المسيحي) مجمعة الاشعاعات النورانية في بؤرتها التي يسيطر عليها اله متقلب!

فاذا كان الضغط الاجتماعي في البيئة هو المنشيء الحقيقي للاخلاق المسيحية (كما لاحظ باسكال بحق) استطعنا ان نلاحظ زوال القصد الاخلاقي في نفسية الفرد المسيحي .. فاذا امكننا ان نتصور مجتمعا مسيحيا فاضلا، فان ملامحه الاولى سوف تنبيء عن مجرد تطبيق حرفي للتعاليم المذكورة في النصوص المسيحية ، فالايمان ليس الا مزاولة الشعائر تحت الحاح انواع عديدة من الضغوط : الاعترافات الشهرية . الماء المقدس . الصلاة في أصابيح الاحد . اعياد الميلاد . التعميد . زواج الكنائس . المسيح المصلوب في سلاسل حول الرقاب(٥) ...

لا بد اذن ان ينشأ الفرد المحاط بمثل هذا الجو الاسطوري في عالم تسيطر عليه فضائل اولئك الناس الذين مخروا بحارا واسعة ، وفتحوا بلاد الرومان البرابرة ، بقوة ايمانهم وسلاحهم الذي هو تعاليم السيد .. فضائل اولئك الذين وقفوا وحيدين ضد براثن انواع عديدة من الوحوش ، وضد فظاعة الاباطرة والجنود الرومان .. الذين انتشوا لرؤية الدم اكثر مما انتشت فصائل الفهود والاسود ..

فاذا تصورنا هذا المجتمع المسيحي الخرافي قائما ...

(٥) يراجع (باسكال) وفكرته العبقرية عن منشأ الايمان بطريق العادة.

صدر حديثا : عن دار الآداب

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافذة

أنت لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة

فما هو الفضل الاخلاقي لافراده ؟!

أفيمكن لاحدنا ان يتصور فضلا لذلك الفرد اكثر من فضل الطاعة ؟!

ان المؤمن الذي ينشأ في عائلة مؤمنة لافضل له ... لانه لم يزد على ان اختزن في باطنه كلام المسيح والقس وامه الفاضلة ... ولذلك ففضيلة المسيحي ليست الا التشبه ببيئته ووالديه .. اي ان فضائله ترتد مرة اخرى – برغمه لتصبح نفسها فضائل الوثني : الطاعة !..

الاخلاق المسيحية اذن هي نتيجة رؤية جماعية لعالم هو فوق حسي ، نتيجة رغبة في حيازة ذلك الكون المتحد بذات الله .. نتيجة نظرية منحنية في الفضاء تتخطى جدران هذا الكوكب (أرضنا) لتقع على فضاء الكون المطلق ... على اسطورة الفردوس التي هي تصور متطور للكمال الذي فكر به – ربما – ذلك الوحش الاول الذي فطن لرادءة هذا العالم (٦)

انه اله من سيخلص البشر من بؤسهم ، لان البشر لا يستطيعون بأنفسهم خلاصا .. وهكذا حكم على الانسان الحقيقي بالموت ، فهو فاشل ابدا لانه غرائزي ، حيوان ، وهو ضعيف ابدا لان الله فقط هو الذي يستطيع ان يأخذ بيده ، فهذا الانسان ، هذا الفرد الذي استطاع غزو هذا العالم الفسيح بكل آلاته ونظرياته ، بمخه الرائع .. يصبح حسب الاعتقاد المسيحي ، فردا ضائعا، ضعيفا، لا شأن له ... انه اله وحسب وهو الذي يمكنه ان يرفع الى فوق ، هذه الكائنات الدودية !.

وبذلك انتهت نظرية الاخلاق في المسيحية الى ان تصبح نظرية في ترجمة قوة (مهماز) الله الى اللغة البشرية !. الله (الراعي) الذي يقوّم من اعوجاج (القطيع) البشري ، (ويسوقه) حتى (حظيرة) الفردوس ؟!.

ما هو فضل (شاة) فردة ؟!!

ما هي فضائل المسيحي ؟!!

ان الاخلاق المسيحية تنتهي الى فرض الطاعة واجبا على كل مؤمن .. طاعة المسيح وطاعة البابا، وطاعة اولى الامر.. فليس غريبا اذن ان يصبح المجتمع المسيحي مؤلفا..من افراد على مستوى بالغ الضعف والتواكل .. فاذا استطعنا ان نتصور العالم بدون اولئك الابطال الذين قادوا حركة حرية الفكر في التاريخ ، ضد الكنيسة ، وضد الدين والمعارف القطيعية على العموم .. أمكننا ان ندرك شكل عالمنا الذي كان مدفوعا الى ان يصب في اشد الحركات الدينية كراهية لحرية الفكر ..

(٦) بسبب من هذا اللقاء الصوفي بالعالم ، يصبح الف الف باسكال ، لا يساوون فردا واحدا مثل (بيير بايل) ذلك المفكر الحر . الارضي . العظيم .. والذي دافع عن العقل وانقذ سيفه الحاسم من لحم العقيدة المرتعد ، وقد مات وهو يأسف على انه لم يفند اخطاء (جاكلو) ..

الاخلاق المثالية :

ترتبط هذه الاخلاق القديمة بالتصورات الاغريقية عن الانسان الكامل ، ولذلك كان انفصالها عن الدين المسيحي واجبا بسبب من انحراف (السوبرمان) المسيحي عن فكرة الكامل وارتباطه بفكرة (المتصوف) ..

والكامل هو النقيض الفريد للماثل ... لان تحقيقه يستتبع رفض هذا الواقعي ، والاشتراك في خلق هذا الكائن الذي يقع في المستقبل .. بدون خصائص ، وبدون مناقب .. و«ان المثل الاعلى للاخلاق ، يمثل حالة الحضارة التي انتموا اليها (٧) فاذا كان (الكامل) هو مثل اليونان الاعلى ، فاننا بترتيب ساذج وجوهري ، نستطيع اعادة خلق ذلك اليوناني الذي كان (ماثلا) في ذلك العصر ...

ذلك لان الانسان المتصور ، لا يعدم ان يكون مقابلا للانسان كما هو ، ومناقضا له ..

فمن هو الكامل ؟ : انه انسان ضد الشهوة ، وضد الانفعالات ، وضد ما يراه شرا .. ولذلك يرتبط الالزام لديه بقوة اعتى من القوى الطبيعية التي في جسده ... ولذلك ايضا كانت فضائله سلبية .. طالما كانت نظرته الى العالم كائنة في عدم الاتيان للفعل .. وبذلك يفضي لكل حركة ، واستمساكه بكل جمود .. فأن يحيا الحياة الحقة ، هو ـ لديه ـ ان يرفض الحياة وان يتمسك بما هو ضدها ... حياة البشر هي الحب .. وكل الانفعالات الاخرى ، والغرائز ، والمتع العقلية والنفسية والعضوية .. الانغماس الكلي في ادران هذا العالم الكبير العميق الواسع المحسوس ـ بغير ان يمس !!.

غير انه لا بد (للكامل) الا يسيل هكذا في المجموع ، ويرتبط بنفس ارتباطات البشر العاديين ، منزلقا الى اتون عاداتهم ، وأسلوبهم المسف في الحياة .. انه يرتفع ، ولذلك فهو يسقط عنه كل ما هو بشري .. انه لا شهوى ، وهو ضد الرغبة وضد الحب .. وهو يصل اخيرا الى السماء مطهرا او مغسولا .. وهنا تظهر بكل جلاء فكرة (العزلة) والتي سوف تتمسك بها الديانة المسيحية بكل قوة ، لكي تخرج من داخلها فكرة (الرهبنة) ..

ان الكامل لا يكمل الا بالابتعاد عما هو واقعي ، عن البشر ، وعن الارتباطات النفسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو مشطور عن المكونات الاساسية الخالقة للانسان كما هو .. ولذلك فالمثالي الاخلاقي ، يقضي زمانه في (اكواخ الانصهار) بين الكتب والاوراق ، والتأمل في الفضاء ، ضاغطا الى حد البتر كافة شهواته ، ومستعملا لشهوة وحيدة ، يعتبرها لفرط طهرها نعمة سماوية : العقل ..

من هذا الانسان الذي تصورته الحاجة اليونانية يمكن ان نستدل على ذلك الانسان اليوناني : التاجر ، البحار ، المزارع ، عضو مجلس الشيوخ .

اليس هو الانسان كما هو الان ؟! بكل رغباته وخبثه ومباذله وشروره وانانيته ؟!

ان فكرة الاخلاق تصبح واجبا خارجيا ، مكتوبا في الكراريس او ادمغة السابقين ، تغزو جسدنا هذا الذي خلق مجنونا وفارغا مستحيل الامتلاء ..

ان الاخلاق هي دائما واجبات من الخارج ، ولذلك كان (الكامل) غريبا .. الهيا ذا ملامح غاية في الصخرية ، فالفضيلة ليست الا (نتيجة لمعركة ضد انفسنا ونصر عليها) كما يفعل ـ حتى الان ـ اولئك الهنود البراهمة الذين يعذبون ابدانهم بالنوم احيانا مقلوبي الوضع سنوات بكاملها ، واحيانا اخرى برفع ذراع يمنى الى السماء حتى الموت ..!! والنتيجة الضرورية ليست هي انفلاق البرعم المعذب كي يمكن للزهرة الاخلاقية البزوغ .. بل هي القضاء على الجسد والاخلاق معا .. النتيجة هي ان تصبح الاخلاق ، التي هي سلوكنا بين الناس ، أخلاقا بيننا وبين انفسنا ، ضد طبيعتنا فكأننا نحيل الجحيم الى داخلنا ..

غير ان الاخلاق ليست كما تصورها اليونان اخلاقا من الفرد الى ذاته ، او كما تصورها المصريون القدماء ، اخلاق البشر تجاه المملكة الاخرى ، انها اخلاق بسيطة وراثية ، سلوكية .. تنبع من خارج الناس ومن داخلهم ، من معاملاتهم وصداقاتهم .. هي اخلاق بشرية ..

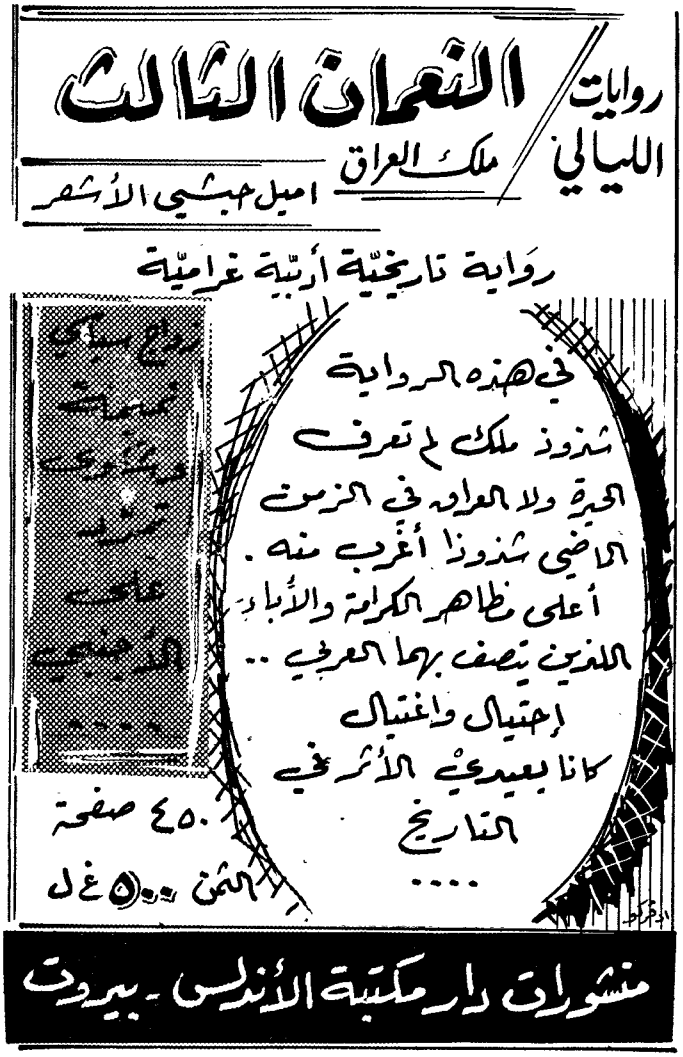

(٧) من الحكيم القديم الى المواطن الحديث (اميل بريه)

الحكيم ، الفاضل ، الماجد ، الزاهد . الكامل ، المهذب . المسيحي.. كل هؤلاء يفضون الى نتيجة نهائية هي استحالة وجود هذا الكائن الفاقد الاحساس ، الذي نقل حساسيته كلما تنسم في غيبوبته شكل المطلق والخلود ..

ولذلك كانت مشكلة الشر والالم في المثالية نتيجة حتمية لانغماس الانسان في الحياة الفاسدة ، وبذلك وجد الجواب المنطقي ، لهذه القضية في وضعها المعكوس ذلك ... : ان يرفض الانسان العالم .. فيصبح ميكانيكيا ضد الشر والالم، عاليا عنهما معا ، وقريبا من الاله والحكمة الخالدة !.

عالمان يسيطران على سلوك الفرد في الخارج : طبيعته الداخلية + الاوامر المجتمعية التي تحاول ان تحد من سلوكه، وان توجهه ، وان تجعله خاضعا لها باستمرار .. فاذا كان هدف المجتمع هو ان يعيش كل فرد في سلام ومن غير سوء .. فالنظام هو الكفالة الوحيدة لمنع اذى الاقوياء .. ولذلك قامت فكرة الدولة من تطور وصل الى ما هو عليه الآن ...

ان الدولة تحاول ان تحد من الغرائز ، ولذلك فهي وسط نصف عادل ، اما الاخلاق المثالية فهي ترفض الدولة والطبيعة الداخلية لتسهم في اقامة شكل من أشكال كون في لا زمان ولا مكان ..

والعالم عندها : كوخ من البوص في صحراء .. بدون بشر !.. ذلك هو الوسط الملائم لامكان وجود مثل ذلك المخلوق الذي سخر منه البشر وما زالوا يعلنون سخريتهم في رفضهم لذلك القالب الحديدي الذي لا بد ان يدلف اليه الانسان الذي هو ، ليصبح الانسان بدون هوية ... كيما يحقق نظرة مثالي راقب الانسان من فوق ، بدون منظار مقرب ، فحشره في طائفة الملائكة .. بدون - حتى - ان يسأله رأيه !.

فهل هو يسير اذن ان يحاول الانسان - بعد كل هذا - تجربة ذلك (الكامل) - والذي يعتبر (فضفاضا) على جسده الضئيل الممتاز ؟!..

الاخلاق المادية :

كانت الاخلاق القديمة صورة غامضة نبيلة تصدر عن مستوى اجتماعي ونفسي بطوليين .. وقد كانت انعكاسا مهتزا لواقع قضى عليه قضاء مبرما ، شكل من أشكال الاستشراف الديني الذي ظهر اثر توسعات المسيحية الاولى!

وقد كانت تلك الاخلاق منطوقة من فم (أبي الهول) والاصنام الاخرى فوق قمم كافة جبال اليونان القديمة .. منطوقة وجامدة كالاسرار ، وكانت تعيش في خيال الناس، وفي احلامهم ، وفي انتشاءاتهم ، ولم يكن لبطل فرد ان يستعير اقنوما واحدا منها ليطبقه تطبيقا واقعيا .. اذ كانت الفضائل غالبا عالية . سامقة . كوكبية .. كانوا يطلبون الانسان الاله الخالد الحكيم .. وقد ظلوا يطلبونه في صلواتهم وفي ضراعاتهم والياذتهم واساطيرهم .. ولكن الردة اتت سريعا في اخلاق (أبيقور) ومن ماشاه ... الاخلاق التي هبطت قليلا ، وساومت قليلا لتحتفظ ببعض من التبرير لنصف البشر الاسفل ..

وقد ظلت هذه الاخلاق (اليونانية الاصل) معلقة في أذهانهم حتى ظهرت المسيحية بانموذجها : الانسان الحب.. وقد ظل هذا الانسان لفترة طويلة ، وبمساعدة آبائه الروحيين ، يقتل الاسبان والفرنسيين وكافري البرازيل وبيرو القديمة ، ويشنقهم ويحرقهم ، بدعوى نشر ديانة (الحب) بالقوة ..! وكانت اخلاق هذه الديانة (والديانات الاخرى) ترتبط دائما « او على الاصح لقد كان يربطها مخترعوها بتعاليم خفية عجائبية ، واشارات ميتافيزيكية سماوية ، وقوى غامضة ، واتخذ العمل المنسجم مع القاعدة الاخلاقية مهابة صوفية روحية(٨)» اما العمل غير المنسجم مع القاعدة فقد كان خطايا واعمالا شيطانية دنسة ومجرمة ، وبذلك وضعت للفرد المسيحي اشرطة وخطوط مناقبية ، توضح له مساره (الجحيم عن يسارك ، والجنة عن يمينك.. وبعد هذا فأنت حر) (!!) .. وقد ظل هذا الفرد لمدة طويلة يجهد في أن يتشبه بملك الملوك الذي صلب دفاعا عن دين الاخاء ، غير انه فطن في النهاية بعقم مجهوده فانقلب الى النقيض المقابل (٩)

---

(٨) فصل نظرية الاخلاق الماركسية من كتاب (هذه هي الماركسية) هنري لوفافر - ترجمة محمد عيتاني ص ٦٤

(٩) اين هم اتباع لوثر وكالفن والمتطهرون وزوينجل ، والمتزون والبروتستانت ، وامثالهم من اصحاب العقلية المسيحية الجامدة ؟. ان الدين المسيحي الراهن يحاول على يد اشد اتباعه اخلاصا (تيلار دي شاردان) ان يوفق بين عالمنا الالي الصناعي ، وبين عظة الجبل !.. وقد حاول القديس (توما الاكويني) محاولة مشابهة عام ١٢٧٠ م ، وهو ان ينصر فلسفة ارسطو .. ويقلبها الى فلسفة مسيحية .. فما الذي حدث بالتقريب ؟! لقد شاه ارسطو حتى بدا وجهه هو والقديس واحدا !..

ان المسيحية تحاول في الم وعناد ، لم شتاتها وجمع اسمالها في محاولات اشبه بانتفاضات المحتضرين ، ومن التاريخ القريب يمكننا ان نشير الى مجهودات اليسوعيين العقيمة ومدرسة (بور رويال) التي حصرت كل جهودها في ابراز عبقرية سان سيران وباسكال !!!

دار الآداب تقدم :

قضايا جديدة في أدبنا الحديث

بقلم الناقد المصري الكبير

الدكتور محمد مندور

دراسات نقدية معمقة عن الانتاج العربي الحديث وعن مشاكل النقد والادب

صدر حديثا

تقول المادية بان الاخلاق القديمة كانت (ادوات تستخدمها طائفة اجتماعية او طبقة محدودة ، للسيطرة على سائر الطبقات ، ولقد دلل ماركس وضرب مئات الامثلة ، على ان التاريخ لم يعرف اخلاقا للسادة ، واخلاقا للارقاء ، بل عرف التاريخ ، في كل مرحلة من مراحله ، اخلاقا يضعها السادة للارقاء (١٠) ..) ولذلك تلح المادية في الاهتمام بمناقب متحررة من كافة الارجاع الايديولوجية البائدة ، واخلاقها تقوم على اساس من الواقع المجتمعي الراهن والذي نجد فيه ان طبقة واحدة هي (البروليتاريا) « تستطيع ان تضع حدا للانحطاط الانساني(١١) » برفضها لكل تلك الفضائل التي كانت تخلق من العامل القديم ذلك الرجل (الصالح)(*) الذي تسيره وتدفعه ايدي ملوك المال !.. وبذلك تصبح الفضائل الجديدة محشورة في كلمة ، في لب كلمة وحيدة تحاول الفلسفة المادية مطها ، واعادة تكوينها ، وانشائها في كل لحظة « ان الفرد البروليتاري يرى في (الطاعة) فضيلة عليا (١٢) !!!!

وبذلك كشف النمر عن ضبه ، ووضحت علاقة الفرد البروليتاري الذي لاقى كافة المحن والاضطهادات والتعذيب والذل واليأس والموت ، بالدولة الماركسية : (الطاعة) ... وبهذه الكلمة اليسيرة ، يختم تاريخ بطولي ويوضع في قمقم، ويلقى به في أعماق بحر الظلمات .. وتصبح المناقبية ، او بمعنى اخر يصبح (وضع) المناقبية في يد الدولة التي ترى وتفهم وتعمل على ان تكون سعادة المجتمع البروليتاري غايتها الوحيدة ، وامنها الفذ ، من خلال الصيرورة الانسانية التي تلغى ظروف المعيشة الراهنة ،لكي ترفع الواقع المحدود، الى مستوى انساني رفيع .. وهكذا نصل الى مناقبية حديثة ... : « فليتخط الفرد ــ كل فرد ــ حدوده الذاتية (١٣) .. » (!!) ..

لكي يحشر في العام .. ، لكي يسيل في المجرى ... لكي يموت .. وتحيا الامة !. فاذا علمنا ان تطور الفرد الاجتماعي يرجع ــ بالضرورة ــ الى تعقيدات مركبة من هذه العناصر : العنصر الحيوي العفوي الوراثي ، والمزاج الفيزيولوجي ، والعنصر الناتج عن تربية فكرية (الثقافة ، التربية ، التكوين ، العنصر الوهمي ، الاوهام عن الذات والتعويضات النفسية ، والغيبة الدينية ، والتأسي ، والاحلام)(١٤) ــ واذا استطعنا ان نسيطر على كل هذه العناصر سويا ، بتقدمنا التكنيكي والنظري ، في كافةنواحيه، امكننا ببساطة ان نوفق في تشكيل آدميين يتصرفون تماما حسبما يقتضي الامر ...

بشر بمناقب جديدة . علمية . متطورة !.

وتصبح الفكرة عن الاخلاق ، شعبا لادخال « الواجب » ! اذ ما هي الاخلاق طالما كنا جميعا شاعرين (بوجوب) سلوكنا على مستوى عام من المحكمة والفضائل والعمل ؟!

ان الاخلاق المادية تبدأ ــ موة اخرى ــ بداية سليمة ، في انها تتهم المجتمع بانه السبيل الوحيدة لنشأة الاخلاق عند الفرد ، فالهندي (الشيخ) الذي يعبد البقر ويقاتل بعضه في سبيل الحصول على بولهاالقذر ، ليس هو الهنديالفرد المعزول عن واقعه .. بل هو الهندي الذي ولد من بطن امه فوجد عالمه على هذا النحو !. المجتمع اذن هو الخالق، وهو يستعمل نفس الكلمة التي ستستعملها الفلسفة المادية فيما بعد : (الطاعة) !.

والاخلاق المادية هي اخلاق طبقة واحدة (البروليتاريا) والتي بيدها التاريخ والمستقبل ، وبسبب من ذلك تصبح مناقبيتها ، هي الوحيدة والممتازة .. ويصبح كل فرد ينشأ في مثل هذا المجتمع التي رسمت (فضائله) ــ ما دام طائعا ــ نسخة مماثلة من جاره ، وجار جاره .. بنفس الليونة ، والطواعية التي لجهاز (الفليشيف) الناعم !. ان الفرد (يستعجل) ويطلب اليه النزوح عن وطنه ، وعمله ... انه يصبح الفرد الراضي القانع ...

وهكذا تلغى الاخلاق ، وتضاف طرق جديدة للسلوك الشخصي للافراد ، مهمتها الفذة هي تنحية ما هو انساني في ذلك الانسان ، وتركيب لولب بدل السلوك الاخلاقي الفردي .. وهذا اللولب هو هذه الكلمة النادرة التي كانت سببا في عفونة النظام الاخلاقي برمته في التاريخ : الطاعة ...

فالاخلاق المادية الجديدة ، تعيد انشاء الفضيلة القديمة، والتي رفضتها ــ بدعو مثاليتها ــ وبذلك تندرج مرة اخرى هذه الفلسفة التي تدعي جدتها وتطورها وواقعيتها ، تحت البند المثالي ..!

الاخلاقية الوجودية :

الاخلاق هي اخلاقي بالذات .. وهي سلوكي ازاءك وازاء الاخرين !.. سلوكي الذي ينم عن داخلي في مظهر .. في حركة ، في تأثير .. ويستمد هذا السلوك صميميته من اخلاقيتين قديمتين (الهية ، وطبيعية) ، يستمدان بالتالي تأثيرهما من كسل البشر ورضاهم .. فهم يتخذون الاخلاق الالهية المكتوبة سندا لهم يعينهم كل لحظة بدون ان يبتكروا قيما جديدة تواكب العالم المتطور ...

ــ التتمة على الصفحة ٥٦ ــ

(١٠) المصدر السابق ص ٦٦

(١١ ــ ١٢ ــ ١٣ ــ ١٤) المصدر السابق من الصفحات ٦٦ الى ٧٦

(*) سوف نلاحظ بعد قليل ان الاخلاق المادية تعيد خلق هذا (الصالح) في دولتها المثالية ، والذي تتكون عجينته من كلمة والحدة ، اشد بذاءة من كلمة اخرى رفضها الانسان : العبودية ..

الوجودية لماذا ؟

تتمة صفحة ـ ٣٩ ـ

وبذلك ـ باعتمادهم على تلك الاخلاق ـ استطاعوا ان يحولوا المسئولية الى قلب الاله نفسه .. (وهذا الموقف الراسب السيء ، هو موقف الفرد المسلم والشرقي على العموم) ..

اما الاخلاق الطبيعية فهي تابعة لنسبية الجو والتأثير والبيئة والعادة ، فما هو حسن ومباح في الصعيد الاعلى، يصبح منافيا للعادة والاخلاق في الريف الشمالي (١٥) فاذا كانت الاخلاق الالهية مكتوبة ومخزونة في الكتب ، فان الاخلاق الطبيعية مطموسة في الرؤوس واللحى والقفاطين ... موجودة في كل ايماءة فقيه او صلاة ريفي .. انها معاشة بالتكرار ، بالتكرار والتوالي ، في رتابة الحياة، ومللها في بؤس الايام التي تفك ما نسجته في الماضي لتعيد انشاءه حاضرا .. في عذاب ايام ذات لون واحد وطعم واحد .. وفي خضم هذه الصحراوات المتشابهة من ساعات العمر ، يخرج الانسان ليجد اخلاقا مهيأة منذ الماضي، لايام تشبه تماما هذه الايام (١٦)ولظروف تحكي تماما هذه الظروف ... فلماذا يحاول الابتكار ؟.

لماذا ينشيء اخلاقا جديدة ؟!!!.

الاخلاق مرتبطة تماما بالحياة ، بالوسط ، ولذلك فهي اخلاق مقابلة ، اخلاق تزاوج مع العالم .. غير ان الاخلاق كما نعرفها تسقط في العام ، بمعنى انها تفترض ان يقف البشر جميعهم منها موقفا واحدا ، وهذا الافتراض يسقط الاخلاق الى مرتبة الواجب ، التي اصطنعتها الفلسفة المادية.

ان هذه الاخلاق التقليدية ، ليست الا نفس الاشارات السماوية ، مكتوبة بلغة البشر ، وحسب فهمهم الخاص، والذي يختلف في (نجازاكي) عنه في (قرطبة) ..

الحياة اوضاع ، وهي ، بكل هذا الاستطراد الثقيل والتوالي المسئم، تفتل حبالها كمصائد . كشراك .. ويصبح حتميا ان يواجه البشر هذه الاوضاع والمواقف بقرارات معينة ، وقد اثبتت هذه القرارات التقليدية انها السبب نفسه الذي يعطي للحياة هذا اللون الباهت المكرور ... وهي ذاتها الاساس الذي تدور حوله فكرة الاخلاق، ويستمد منها الواجب فكرته الثقيلة .. على ان استسلام البشر لعملية تكرار القرارات التي اوجدها في ظروف مخالفة او مشابهة اجدادهم واجداد اجدادهم ... نزع عنهم فكرة الحرية وثبت بدلها جبرية الاخلاق ..

القرن العشرون هو قرن اكتشاف الانسان .. ولذلك ترتبط اخلاق هذا القرن بالحرية ، وتفضي الى اللااخلاق(١٧) .. والحرية تعني المسئولية : ان يحمل البشر عبئها وثقلها .. ان يصبح الالزام داخليا ، ليس من الخارج وتبعا لارادة نبي او قبيلة .. بل من الذات التي تواجه وتكشف ، وتقرر، بدون ان تلتفت الى حائط يسند ، او اشارة تؤيد ..

وهذه الحرية تصبح قرينة الامكان .. قرينة الفعل ، والوجود والتوتر الذي يديم لحظة الاكتشاف الجديد ، حتى تندفع مسئولية الذات الى التقرير ..

الوجودية تلفظ كل مذاهب الاخلاق المقررة ، وتعيدها الى طريقها الحقيقي: الحرية.. فالاخلاق والحرية يمثلان شريانا واحدا يقع القلب البشري في وسطه .. والاخلاق هي طرف الشريان قبل ان يدخل القلب ، والحرية هي الطرف الاخر ، فكلاهما يصل الى القلب بطريقه الخاص ..

الحرية تؤدي الى الاخلاق ، ولكن الغير تقليدية .. لان اخلاق الحرية مرتبطة بالمواقف الانسانية ، وهي تنزع من داخلها ، من المفهوم العميق لاتحاد الحرية بالالزام قرارها الذي يؤكد تبعيتها للحظة الحدث نفسها .. ولما كانت حتى العاطفة ارجاعا عكسية لافعالنا ، وافعال الاخرين ، فاننا نجد ان هذه الافعال هي اخلاقنا بالذات ..

ولكن .. ايمكن ان نقبل بعديا ، ما رفضناه على اساس قبلي .. وبمعنى اخر .. هل نستطيع ان نوافق على عدم ضرورة الكذب اثر تجربة شخصية ، بعد ان رفضنا هذه القاعدة المكتسبة بالذات ؟!

تجيب على هذا السؤال الحيوي (سيمون دوبوفوار)(١٨) بالايجاب . فبعد ان يرتد القبلي الى الذات في جحيم تجربة معينة ، يمكن ان يصبح حقيقيا على اساس انه قد انتفض كجواب اخير اثر مشاركة وجودية ..

وعلى هذا يمكن للحرية الفردية ان تبتكر مقررات صالحة للبشر ..

***

لا وجود لاخلاق عامة ، والفرد حر ليختار ويبتكر « فلا اخلاق عامة تستطيع ان تدلك على الواجب ، لانه لا وجود في هذا العالم لاشارة قابلة للتأويل (١٩) » ومجانية الاختيار

---

(١٥) يراجع تأثير اللغة فحسب في بحث الاستاذ سلامة موسى (السمائية) مجلة الكاتب المصري مجلد ٨ عدد ٣٢ مايو ١٩٤٨ ص ٥٥٦

(١٦) الا يجب ان ننسى ان الفلاح المصري مثلا يعيش بنفس ضلال وادوات ومناقب الاخر الذي عاش قبل اربعة الاف عام !

(١٧) ذلك ان اللاأخلاقية ليس معناها عدم القول بالاخلاق ، بل معناها عدم القول باخلاق معينة » الدكتور عبد الرحمن بدوي (هل يمكن قيام اخلاق وجودية ؟) ص ٢٤٣

(١٨) من اجل اخلاق مزدوجة الدلالة ص ٢٦
Pour une morale de l'ambiguité

(١٩) الوجودية فلسفة انسانية (جان بول سارتر) ص ١١
انظر (هل يمكن قيام اخلاق وجودية ؟) عبد الرحمن بدوي

ويرد عليها بان الانسان لا يعرف الا بالنسبة الى التزام ما ، الى فعل حر .. فكل عمل وتحقيق وكلمة وجبن وقرار ... واجبة ان ترد لا الى الفعل ، ولكن الى الفعل المصحوب بالحرية ..

★★★

ـ هل هي مثالية جديدة ؟

لقد دلت الاخلاق والمعرفة والتاريخ الوجودي ، على انها لا تؤمن بالتفاسير النهائية والمطلقة للكون والانسان .. فكما ان النظرية النسبية ، تدل على ان الرياضة الاقليدية المطلقة، قد انتهت الى تفسير العالم كله تفسيرا غير صحيح ، فان الوجودية تدل الانسان على ان القوالب القديمة ، والراهنة ، ليست الا خطوطا صارمة ، تحاول ان تنتهي بسرعة من مشاكل الانسان وقضاياه ، فهي تمنح الانسان (منظارا) سحريا يستطيع بواسطته تفسير كل شيء .. ولذلك فانسان هذه المناظير عجينة طيعة في يد (واهب المنظار): العالم في احداها مظهر سافل ، وهوامتحان للارادة البشرية، ينتهي بالصالح او (الطيع) الى الفردوس السماوي ، وهو في الاخر مظهر ايضا لضرورة بث نفسها في قلب كل شيء ..

وهذه الضرورة هي النتيجة الشهيرة لاكتساح طبقة معينة .. طبقة اخرى !.. وانه لعسير غاية العسر ان يحاول انسان هذه المناظير اتخاذ منطق اخر ، فلقد فسر الكون منذ الازل والى الابد ، وليس على الانسان الا ان يحاول جذب حياته من أذنيها كي تدلف الى كهف التفسير !..

وانه لعسير ايضا ان تحاول نظرية جديدة اتخاذ منطق لها وسط جموع المناظير هذه .. وخاصة نظريات الشك التي كانت سبب رفضنا للتفاسير النهائية القديمة ..

ان المثالية هي طمس للوجود ، وبعث لوجود من نوع جديد ، ليس وجودا الا لان انسانه يطرف بعينيه دالا بحياته ليس وجودا لانها تنمي في انسانها كراهية لعظمة هذا العالم ، وتحاول ان تنحي طبيعته الخاصة ، وان توجهها نحو الله واخلاق السوبر مان ..

فهل كشفت الوجودية عن الله ، بقدر كشفها الهام لحرية الانسان ؟! ان المثالية تزحف الى خارج المادة ، لتكتشف التفاسير البابلية ، والمصرية القديمة ، غير ان المعرفة المادية ـ فيما لو غض الطرف عن النتيجة التي يربطها بها مؤيدوها ـ هي المعرفة الصحيحة التي تتمسك بها الوجودية ، في لقاء اشد غنى بالاشياء ..

أهي اذن وجودية اشتراكية ؟!! (★)

الانسان : انه الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يسمي اي شيء .. وبالرغم من ذلك يصبح هو الكائن الوحيد الذي بدون اسم .. لانه اراد ان يكتشف العالم ، ان يدركه .. ولم يرغب في ان يكتشف نفسه .. ومن اجل ذلك كان غريبا عن ذاته طيلة هذه القرون ..

كان يرى العالم من داخله، وكان يلفظ العالم من داخله.. كان كلا بدون تفسير !! اما الان فانهم يقطعونه ويشرحونه : فهو روح وجسم ، وهو اله وشيطان ، وهو مادة هيولي .. وهو !. ومن اجل ذلك بالذات ، فطن هو الى داخله ، وبدأ يرى العالم من جديد .. على اساس هذا الازدواج الذي ورثه عن المفسرين الاول ...

★

كانت المسيحية تطمع في امتلاك الانسان ، ومن اجل ذلك اتبعت افظع الوسائل : القتل !. ومن اجل هذا بالذات ، فقدت اخلاص الانسان ..

اما المادية فهي تحاول اجتذابه بطرق اخرى ، هي الغواية الحاسية ، فعلى حساب اكبر مكتشفات القرن العشرين : الحرية الانسانية .. يمنح الانسان وعدا بان تظل العدالة هي الغاية الرئيسية للعالم ..

ان المثالية تدعي استقلال الافكار عن التاريخ، في حين تؤكد الوجودية تاريخية الافكار الانسانية ..

ان الوجودية هي بديل المثالية ، بديلها المناقض ، ولكن الغير جامد ، فهي تشكل طموحا ليس نزوة ، وارادة ليس رغبة .. وفي النهاية طلبا ملحا ليس تكرارا النظريات

(★) هذا الجواب : الا يحتاج عناية خاصة في بحثه ؟.
وعلى ذلك فسوف يكون مدار دراستنا في القريب ..

النهائية منذ بدء التاريخ حتى الابد ..

ليست الوجودية مثالية جديدة ، وان كانت بعض صورها كما نجدها عند ياسبرز ومارسيل ، تميل الى ان تتخذ من المسيحية التي ارهقتها اللوثرية والكالفنية ، مذهبا بسيطا خاليا من تعقيدات التناول والقرابين وخبز السيد !!

فوجودية مارسيل ، هي فلسفة الاخر .. فلسفة حب .! وهي علاقة مثالية مضحكة ، وخاصة اذا لاحظنا العلاقة بالاخر عند سارتر ، وهي (علاقة) صراع .!

ليست الوجودية مثالية ، لانها تتخلى عن كل الفروض المثالية وتدعها تسقط من تناقضاتها .. وليست الوجودية ـ اخيرا ـ مذهبا .. لانها لا تملك نصوص المذهب الجامدة، والمنطقية كما نجد عند هيجل وديكارت ..

انها لا تتوجه الا الى الانسان : هذا الكائن العاري الذي لا تسنده سوى حريته ..

*

فبدلا من ان يكون السؤال الجوهري : اهي مثالية جديدة؟ يصبح ..

اتستطيع هذه الفلسفة ان تصمد للتاريخ .؟

ان العالم المحسوس ينبىء في كل لحظة عن امتلاء نادر اثر كل لقاء به ، وهذا الامتلاء يغني الذهنين معا : الذهن الانساني ، و (ذهن) الاشياء التي تغتني بفتوحات الانسان .. غير ان هذه الفتوحات ، التي اصبحت علمه ، كادت تأسره ، كما أسرته الميتافيزيقا من قبل ..

ويصبح ضروريا اذن على هذه الفلسفة الجديدة ، ان تحتفظ بتوازن الانسان ، وان تحذره كل لحظة بالشراك المبثوثة له كي يسقط من حبائل احداها الى الابد ..

ومن اجل ذلك ترتبط هذه الفلسفة ميكانيكيا بتاريخ الانسان ومستقبله ..!

***

خاتمة :

لا نحتمل ان يشك واحد ، في أن (الانسان) الذي بحثته هذه الصفحات ، والذي فوجيء بانقسام حضوره المشع .. هو الانسان الغربي الراهن .. ازاء الالة والسقوط ..

غير ان احد المفكرين الشرقيين(*) لاحظ ان المعركة بعيدة عن ان تعطي جوابا للفارس الشرقي المتفرج، فحاول ان يبتكر انسانا يجمع بين الحياد والاشراق .. : الشاهد !!.

غير أن هذا الانسان الجديد ينتهي الى السلبية ، بسبب من موقفه المائع . الى الغموض والسلبية ... فهو يختار الطريق الجانبي الخالي من توتر المغامرة والمفاجأة ..

بيد انها هموم كل حي .. كل انسان تاريخي ، هي هذه التي تؤلم الانسان الشرقي المعاصر ، والذي يحاول ان يبث في الزمان اساه وفرحه الخصوصيين ، بغير ان يستعير هواه وفلسفته ، ومن اجل ذلك يصبح (الشاهد) هروبيا ، ما دام كرب العصر يفرض عليه ان يقيم دعواه وان يتشبث بها .

ان عليه ان يختار غده ، وسيختاره .. لان الازمة هي بالقرب منه لدرجة انه ادرك اتصالها بشرفه وكبريائه ..

ان الجواب سيتفجر من هنا .. من هذه الارض التي عرفت النبوات والاجوبة .. من ارض الطهر والحماسة ، سوف يطلق الشرقي من عقاله ، ذلك الجواب الذي طلسم منذ الازل ، والذي جسه الغربيون في صليبياتهم المتوالية، وحملاتهم الثقافية والسياسية ، فوجدوه فرخا سماويا اعزل !!.

على ان العدالة والحرية ، سوف يرتبطان ، بدون شك، في جوابه الذي ينتظره الغرب ، جوابه الذي سوف ينتزعه من كبده المجروحة .. ومن موقفه المؤلم الذي قيده شاهدا طيلة هذه السنوات ..

القاهرة **محيي الدين محمد**

(*) رينه حبشي في مؤلفه Pouvons-nous Faire l'Histoire
(ايمكننا ان نسير التاريخ ؟)

من واجبنا التذكير بان هذا الجواب الذي افترضه المفكر (ريني حبشي) اساسا لموقف الشرقي قد ذكر كجواب غربي ازاء آلية الحضارة الغربية في رواية (كونستانتان جيورجيو) المخيفة (الساعة الخامسة والعشرون) فهو اذن جواب ملفق وزائف ، وان كنا نلاحظ تبعية وجودنا الراهن (للشهادة) بالذات !!.

قريبا :

الثورية
في الفكر السياسي العربي

دراسة علمية سياسية لمفاهيم الثورة والوسائل الثورية في التاريخ العربي منذ القرن السابع حتى الآن .

بقلم الدكتور

حسن صعب

دار الاداب